أثر السياسة الخارجية للمخزن على المدينة المغربية خلال العصر الحديث سياسة الانفتاح في عهد السلطان محمد بن عبد اللّه نموذجًا (١٧٥٧ — ١٧٩٠م)

د. عبد الباسط المستعين

مدير المركز

مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات

فاس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الباسط المستعين، أثر السياسة الخارجية للمخزن على المدينة المغربية خلال العصر الحديث: سياسة الانفتاح في عهد السلطان محمد بن عبد الله نموذجًا (١٧٥٧ - ١٧٩٠م).- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والعشرون؛ يونيو ٢٠١٤. ص ٧٤ – ٨٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

تبتغي هذه الدراسة، بعد وضع المغرب الأقصى في سياق التطورات المحلية والإقليمية والدولية التي أحاطت به في العصر الحديث، الكشف عن صلة سياسة "الباب المفتوح" التي نهجها السلطان محمد بن عبد الله في علاقته مع البلدان الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، بتطور المدن المغربية: طبيعته، ونوعيته، وحدوده، وآثاره، والعوامل المتحكمة فيه، وتقويمه؛ عبر تناول أهم مميزات هذا التطور الحضري الساحلي والداخلي في ظل توسع الاحتكاك مع المد الامبريالي الأوروبي، ومختلف مضاعفاته الاجتماعية والاقتصادية والهيكلية، ثم فحص الأسس التي ارتكز عليها لاستخلاص عناصر القوة والضعف التي اكتنفته.

مُقَدِّمَةْ

يُعدّ النمو الحضري إفرازًا طبيعيًا لعدة عوامل تتضافر لتحديد معالم الخريطة الحضرية لبلاد معينة. ولقد وقع مغرب العصر الحديث تحت تأثير مجموعة من التحولات الداخلية والخارجية التي طبعت مساره السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والحضاري بشكل عام. وكان لها انعكاس مباشر وغير مباشر على الحواضر المغربية. من هذا المنطلق، ارتأينا أن نلامس الظاهرة الحضرية في المغرب خلال هذه الحقبة في علاقتها بسياسة المخزن تجاه محيطه الخارجي، بعد أن نعرج بإطلالة سريعة على الظروف العامة التي ساهمت في صياغة الأحداث وتطورها بشتى الميادين، لنضع هذه الظاهرة في إطارها التاريخي وسياقها من تلك التطورات، محاولين الكشف عن العوامل المساعدة أو المعرقلة لها، وخصوصيات السياسة الخارجية للسلطان محمد بن عبد الله، وكيف أرخت بظلالها على المدن المغربية عمومًا، والمدن الساحلية منها على وجه الخصوص، لنخلص إلى أهم النتائج المترتبة عن ذلك.

وتكمن أهمية فترة حكم محمد بن عبد الله في حجم وعمق التحولات التي شهدها المغرب في عهده على صعيد السياسة الخارجية، فقد اشتهر هذا السلطان بإصلاحاته المتعددة على مستوى الجيش والإدارة، وكذا العلاقات الخارجية للدولة التي وسمت بسياسة "الباب المفتوح". واعتمادنا هذه الفترة المرجعية لا يلغي وجه الشبه الكبير من حيث الميكانيزمات والعوامل المتحكمة في الفترات التي سبقتها واللاحقة عنها، فما هي الظروف العامة التي أملت طبيعة السياسية الخارجية للسلطان محمد بن عبد الله؟

أولاً: أثر التحولات العالمية على المغرب الأقصى خلال العصر الحديث والإجراءات التي اتخذها محمد بن عبد اللّه لمواجهتها

لما كانت أروبا قد شرعت في قطف ثمار نهضتها الشاملة، وغدت أقطارها مركز الاقتصاد العالمي، وأصبحت تتطلع لتأكيد وتأبيد سيطرتها الدولية عسكريًا واقتصاديًا، كانت الأوضاع في المغرب

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

الأقصى لا تبعث على الارتياح. ونجمل رصد مميزاتها على الشكل الآتي:

١/١- موقع المغرب ضمن مسيرة التحولات العالمية الكبرى خلال العصر الحديث:

أ- على المستوى السياسي والعسكري:

يعتبر القرن السابع عشر الميلادي قرن التحولات السياسية العميقة في إنجلترا عبر عدة ثورات وحروب أهلية أفضت إلى تحجيم دور الملكية وإقرار النظام البرلماني. هذه التغييرات كان لها في القرن الموالي أثر بالغ على باقي شعوب أوروبا بشكل متفاوت. وكان أكثرها صدى وشهرة: الثورة الفرنسية في صيف ١٧٨٩م، وقد تزامنت مع فترة حكم محمد بن عبد الله للمغرب. هذه التطورات أصبحت مصدر خطر هدد الأنظمة الملكية في أوروبا والإمبراطوريات التقليدية بالانهيار، وفتحت أمامها حقبة طويلة من الحروب والصراعات السياسية. ورغم أن أدبيات الحقل السياسي الذي تجاذبته أطراف ومصالح مختلفة بدت وكأنها تتغير بشكل كلي، فإن نمط الحكم القديم حافظ على وجوده بجل ربوع أروبا باستثناء التحولات المرنة نسبيًا في إنجلترا والحادة في فرنسا.

هذا الجو من الغليان السياسي الداخلي رافقته حوادث عسكرية متعددة مست العلاقة بين البلدان الأوربية من جهة والعلاقة بينها وبين العالم الخارجي من جهة ثانية، كما غدت روسيا والنمسا قوى عسكرية لا يستهان بها إلى جانب القوى العسكرية الكبرى ممثلة في بريطانيا وفرنسا، فضلاً عن الأهمية العسكرية التاريخية لإسبانيا، والقوى العسكرية الصاعدة آنذاك: بروسيا (أكبر وأهم الولايات الجرمانية) والولايات العامة (هولندا)، والسويد والدانمرك والدويلات المدن في إيطاليا.

كل هذه التحولات كان لها انعكاس مباشر على العالم الإسلامي، شرقًا وغربًا، فالإمبراطورية العثمانية في هذه الحقبة اكتفت بدور دفاعي تكسر صموده مرارًا أمام تكالب وزحف الجيوش الأوربية، وصارت الأجزاء الأوروبية منها و الإيالات القاصية في شمال إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية، هدفًا استراتيجيًا للأحلاف الصليبية، ولم تُعدّ حملات عناصر الجهاد البحري قادرة على صد الخطر الأوربي المتفاقم. انضاف إلى ذلك، التوتر الداخلي الناتج عن استفحال نفوذ جيش الانكشارية وتأثيره السلبي على مركزي السلطان والصدر الأعظم، والصراعات الجانبية على مواقع القرار، والتي راح ضحيتها عدد كبير من السلاطين.

ولم يكن المغرب الأقصى أحسن حالاً ولا حظًا؛ فرغم نجاح الدولة العلوية في استرجاع الوحدة السياسية للبلاد، لكنها كانت ما تزال مهددة بالأخطار الخارجية من جهة، ومن جهة ثانية بتجدد الاضطرابات السياسية سواء مع المناوئين للدولة أوبين الأمراء المتصارعين على العرش، أخطرها أزمة الثلاثين سنة التي أعقبت حكم السلطان إسماعيل، والتي جاء في وصفها: "ولم تزل نيران الفتن في توقد واشتعال، وأحوال الرعية في اختلال، وضعف وانحلال، وعم جميع المغرب الغلاء، وعظم البلاء، وأكل القوي الضعيف وانتكس المشروف والشريف، وصارت أموال الناس غنيمة باردة للصوص والبغاة وفشت المناكر وتعذر الأمن في السابلة وارتفعت الأسعار في سائر الأمصار..."،[١] وكان المغاربة "قد سئموا الهرج والفتن وأعياهم التفاقم والاضطراب وملوا الحرب وملتهم..."[٢].

يتضح أن كل مؤشرات القوة السياسية والعسكرية، كانت تميل لصالح البلدان الأوربية على حساب العالم الإسلامي.

ب . على المستوى الاقتصادي:

مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، انتهى تمركز العالم حول حوض المتوسط،[٣] وانتقل ثقل الاقتصاد الدولي إلى المحيط الأطلسي مع الانفتاح على سائر المحيطات والبحار. واستفاد الاقتصاد الأوربي من الكشوفات الجغرافية في مراكمة أرباح طائلة، ما لبثت أن وظفت في القطاع الصناعي، فتبلورت الثورة الصناعية في إنجلترا منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، ومع نهايته شرعت في العبور تدريجيًا نحو فرنسا، فالولايات الجرمانية وبعض المدن الإيطالية وغيرها. وبذلك لم تتمكن أروبا من فك عزلتها السابقة وتكسير طوق الاحتكار الإسلامي لمواردها التجارية في جميع الاتجاهات فحسب، بل أصبحت تمثل مركز ثقل الاقتصاد العالمي، وتراقب أهم محاور التجارة الدولية.

وفي المشرق الإسلامي، تعرضت أسس القوة الاقتصادية للإمبراطورية العثمانية للانهيار بعد تراجع طريق الحرير وتجاوز وساطتها الإجبارية لتجارة التوابل والمواد القادمة من الشرق الأقصى. وفي تلك الأثناء كان المغرب الأقصى بدوره يعاني من مضاعفات إلغاء الوساطة المغربية في تجارة الذهب السوداني بعدما وصل الأوربيون عبر المحيط الأطلنطي إلى مصادره مباشرة، وبذلك عرفت اقتصاديات البلاد نزيفًا كبيرًا زادت خطورته بتعاقب السنوات العجاف والأوبئة الفتاكة وهجوم أسراب الجراد بين الفينة والأخرى. هذا النزيف انعكس سلبًا على موارد المخزن المغربي فاتجه إلى مضاعفة الجبايات التي أثقلت كاهل السكان وتسببت في أزمات متعددة.

ج . على المستوى العلمي والفكري:

شهدت أوربا الغربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وبشكل تدريجي ومتفاوت بين الجهات والبلدان، نهضة فكرية شملت العلوم والفنون والآداب، وتزامنت مع ظهور حركات الإصلاح الديني التي انصب اهتمامها حول انتقاد ومواجهة ممارسات الكنيسة الكاثوليكية. وكان لكل ذلك أثر كبير وملموس في الانتقال بالقارة الأوربية من واقع إلى آخر ومن حقبة وصفت بـ "عصر الظلمات" إلى أخرى نعتت بـ "عصر الأنوار". لقد ساهم تطور المعارف والعلوم في ازدهار الاقتصاد، لكنه ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي في إنجلترا، والقرن الثامن عشر الميلادي في فرنسا، انتقل إلى الفكر السياسي مخلفًا تراثًا هائلاً، انصب على نظم الدولة ومبادئ

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الحريات والحقوق الفردية، الأمر الذي أثر بشكل واضح في الحياة السياسية بالبلدين، وباقي أقطار أوربا فيما بعد. أما العالم الإسلامي والمغرب، فقد خيم عليهما جو من الجمود والانطواء، ولا يبدو أنهما تفاعلا إيجابًا، أو واكبا أصداء الثورة العلمية التي كانت تتفاعل بجوارهما بسرعة مذهلة.

د . على المستوى الاجتماعي:

أدت التحولات الفكرية والاقتصادية التي تواصلت في أوربا على امتداد قرون إلى إحداث تغييرات عميقة على مستوى البنية الاجتماعية. ولقد كانت الطبقة البورجوازية المستفيد الأول من تعاظم الأنشطة التجارية، كما نجحت، بفضل استثمار أرباحها التجارية، من السيطرة على القطاع الصناعي الناشئ، وتطوير وسائل الإنتاج وتجديد الاستثمار في دورة اقتصادية تراكمية. ورغم أنها لم تشكل سوى أقلية داخل المجتمعات الأوربية، فإن أهمية أنشطتها الاقتصادية واتساع قاعدتها استمرا في التزايد، مما دفعها إلى التطلع للقيام بأدوار سياسية تناسب وزنها الاقتصادي؛ فساندت بقوة إحداث تغييرات سياسية في إنجلترا وفرنسا، وساهمت في منافسة، بل والإطاحة بالطبقة الفيودالية التي كانت تحتكر مراكز القرار. ولخدمة أهدافها وتلبية طموحاتها؛ في ظل الإقصاء الشديد الذي طالها في المجالات الإدارية والعسكرية والسياسية، احتضنت العلوم والتيارات الفكرية الجديدة المناهضة للنبلاء ورجال الدين. على مستوى آخر، ساهمت الثورة الصناعية في تبلور فئة اجتماعية جديدة هي: الطبقة العمالية التي أصبحت أهش الطبقات الاجتماعية، ورزحت تحت ألوان من البؤس والمعاناة والحرمان.

كما أفضت التغييرات الاقتصادية إلى تركز معظم الأنشطة الاقتصادية في المدن التي تضاعف عددها وساكنتها بتزامن مع الانفجار الديمغرافي العام الناجم عن وفرة المواد الغذائية وتحسن وسائل النظافة والتطبيب. وإذا كان المجتمع المغربي قد حافظ على تركيبته ونوعية الشرائح المؤثرة فيه، فإن هذه التشكيلات الاجتماعية لم تملك من المقومات المادية والطموحات ما يؤهلها لقيادة تطور حقيقي أو نهضة موازية لما كان يحتدم حولها، باستثناء بعض التحولات الطفيفة المتمثلة في تضاعف نفوذ الزوايا وشيوخ الصوفية، وتزايد مكانة الأشراف بشكل لا يمكن تجاوزه، وهو ما أهل هاتين الفئتين للعب أدوار خطيرة جدًا في هذه الحقبة من تاريخ المغرب. على إيقاع هذه الظروف التي لا نلمس فيها عاملاً مساعدًا، استلم محمد بن عبد الله مقاليد السلطة في المغرب، فماذا أعد من إجراءات لمواجهتها؟

٢/١- معالم السياسة الخارجية للسلطان محمد بن عبد الله:

إن الروابط السياسية بين الدول إما أن تعكس علاقة الصداقة والتعاون، أو العداء والتوتر، أو الحذر والتوجس. وقد اتسم عهد السلطان محمد بن عبد الله بسلسلة من الإصلاحات اقترنت بشكل جلي مع العلاقات الخارجية. ويمكن ملامسة ملامح هذه السياسة كالآتي:

أ . علاقته بالدولة العثمانية والعالم الإسلامي:

على عكس العهود السابقة التي تميزت بالعداء حينًا،[٤] وبالريبة والتذبذب أحيانًا أخرى، شهدت العلاقة مع الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد بن عبد الله تحسنًا وصل إلى درجة التعاون والتضامن، تعكسه حجم السفارات[٥] المتتابعة بين المغرب والأستانة ونوعية الهدايا المتبادلة،[٦] من جهة، ورفض توقيع اتفاقية تبادل تجاري مع روسيا لأنها كانت تشن الحرب على الإمبراطورية العثمانية،[٧] من جهة ثانية. هذا المعطى جعل المغرب في تلك الفترة يؤمن جبهته الشرقية، بل يضمن تعاونًا عسكريًا استفاد فيه من الخبرة العثمانية، خاصةً في جانب الصناعات البحرية والفنون العسكرية والهندسية.[٨] وقد استفادت الدولة العثمانية بدورها من سخاء السلطان محمد بن عبد الله المتمثل في كثرة الهبات[٩] والقروض المالية، والإمداد ببعض الأسلحة كالبارود وملح البارود،[١٠] والمساعدة في افتكاك الأسرى الأتراك لدى الدول الأوربية.[١١]

كما أولى السلطان عناية خاصة ببقية أجزاء العالم الإسلامي في الحجاز والشام ومصر وطرابلس،[١٢] واليمن،[١٣] من خلال الحجم الكبير للأعطيات المخصصة لها في شخص العلماء والأشراف والحكام، والصلات المتنوعة،[١٤] بلغت إلى حد زف ابنة السلطان إلى سرور شريف مكة.[١٥] والمثير في هذه العلاقات أنها لم تتطور، على ما يبدو، إلى عمل مشترك نابع من قناعة مبدئية ومرتكز على أسس واضحة المعالم؛ وإنما اقتصرت على المجاملة وخطب الود اقتضتها مصلحة الطرفين في تلك الفترة؛ حيث كانت الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان مصطفى الثالث وعبد الحميد الأول تجتاز مرحلة صعبة من تاريخها سواء في علاقتها بروسيا والأجزاء الأوربية الخاضعة لها أو ببقية الشعوب الإسلامية التابعة لها؛[١٦] بينما كان محمد بن عبد الله يسعى إلى توطيد دعائم حكمه بالتفرغ للتحديات الداخلية والأخطار الأوربية.

كما ظل المغرب يحتفظ بعلاقات تجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء رغم تراجع أهميتها السابقة، وسياسيًا بادرت العديد من ممالك السودان والواحات الصحراوية إلى إعلان ولائها للدولة، إما بشكل اسمي فقط، أو عبر هبات تبعث بها دوريًا للسلطان المغربي، خوفًا من تكرار الغزو العسكري كما حصل في العصر السعدي.

ب . العلاقة بأوربا والعالم الغربي:

لقد مرت العلاقات المغربية الأوربية بأطوار مشحونة بالتوتر تطبعها المواجهة العسكرية واندفاع الأوربيين بإصرار نحو الثغور المغربية، خاصةً منها إسبانيا والبرتغال ثم إنجلترا، بينما ردت فرنسا وهولندا بقوة على مجاهدي البحر المغاربة من خلال الهجوم الخاطف على بعض الموانئ المغربية. وبالمقابل اكتفت المدن الإيطالية وباقي البلدان الأوربية الصغيرة أو حديثة النمو بالتطلع إلى

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

غزو الأسواق المغربية وتعزيز علاقاتها التجارية مع المغرب. وبحكم أن ميزان القوى أصبح يميل لصالح الدول الأوربية منذ زمن بعيد، فإن المقاومة المغربية كانت تتجه نحو مصير غامض حتم على عدة سلاطين مراجعة سياستهم الخارجية مما اعتبر تنازلاً ومهادنة للكفار أو تحالفًا معهم؛ ففي بداية عهد محمد بن عبد الله استمر على اختيار المواجهة مع القوى الرأسمالية الكبرى عبر تبني حركة الجهاد البحري؛ مما جعله وجها لوجه مع هذه القوى التي عانت ملاحتها إثر ذلك من متاعب جمة؛ ولم يتأخر جواب هذه الدول؛ فقد دقت طبول الحرب قرب السواحل المغربية وأفرغت المدفعية الأوربية غضب قذائفها على أهم الموانئ (حالة هجوم الأسطول الفرنسي على سلا والعرائش سنة ١٧٦٥م، ثم حصار هولندا لمنطقة طنجة أصيلا وإغراقها لبعض المراكب المغربية سنة ١٧٧٦م...). هذه الإنذارات شديدة اللهجة، دفعت السلطان محمد بن عبد الله على الفور إلى إقرار سياسة انفتحت على العالم الأوربي؛ لكن بشكل حاول أن يضمن فيه نوع من التوازن مع الدول الأوربية، وسعى من خلال ذلك لتحقيق هدفين:

الأول: تجنب عواقب الاصطدام مع دول مزهوة بتفوقها العسكري.

الثاني: ضمان عائدات جمركية مهمة، أصبحت المورد الأساسي لخزينة الدولة،[١٧] لاسيما بعد تراجع التجارة الصحراوية.

وعلى الرغم من أن بنود بعض المعاهدات[١٨] التي وقعها السلطان مع مختلف الدول الأوربية تضمنت امتيازات غير مبررة،[١٩] وأمنت بشكل فعلي مصالح القوى الأوربية في السوق المغربية؛ فإنها على العموم، ذرت على خزينة الدولة مداخيل وافرة لم يظفر بها حاكم من قبل؛ وإن تم هذا على حساب مصالح الناس التي تضررت كثيرًا من إطلاق أيدي الأجانب في جل المدن المغربية بعدما كان الاتصال بهم مقتصرًا على بعض المرافئ الساحلية.[٢٠] كما احتدت المنافسة التجارية بفعل قوة الطلب على بعض السلع الحيوية التي لم يكن مسموحًا بتصديرها سابقًا.[٢١] ورغم كل ذلك، كان "سطح" الأحداث يبرز أن المخزن المغربي يمسك بزمام الأمور، ويمتلك هامشًا كبيرًا لاتخاذ القرار والمناورة؛ عكس ما كان يتفاعل بعمق في حقيقة الأمر من زحف امبريالي وتعاظم تهديداته بشكل سيتجاوز قدرات واختيارات المخزن.

وقد جاءت لائحة معاهدات السلم والتجارة على الشكل الآتي: مع الدانمرك سنة ١٧٥٧م،[٢٢] ثم في سنة (١٧٦٦ . ١٧٦٧م)،[٢٣] ومع السويد سنة ١٧٦٣م،[٢٤] ومع انجلترا سنة ١٧٦٠م،[٢٥] ثم مع إسبانيا[٢٦] في نفس السنة،[٢٧] ومع فرنسا سنة ١٧٦٧م،[٢٨] ثم البرتغال سنة ١٧٧٣م.[٢٩] كما أجرى مفاوضات سنة ١٧٧٧م مع هولندا،[٣٠] عقب إعلانها الحصار البحري على المغرب، وفي سنة ١٧٨٦م، منحت "حق احتكار التجارة بميناء العرائش".[٣١] وسعى السلطان كذلك إلى تحسين علاقاته مع دول أخرى منها ما انتهت بتوقيع معاهدات صلح كالنمسا سنة ١٧٨٤م،[٣٢] والولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٧٨٦م،[٣٣] والبندقية[٣٤] سنة ١٧٦٥م،[٣٥] وتوسكانا (فلورنسا) سنة ١٧٨٢م،[٣٦] ونابولي،[٣٧] ومالطة[٣٨] وغيرها. وبالموازاة مع ذلك، اتخذ السلطان محمد بن عبد الله إجراءً انفراديًا من جانب واحد سنة ١٧٧٨م، أعلن فيه فتح أبواب الموانئ المغربية في وجه جميع الدول الصديقة . الموقعة لمعاهدة سلم وتجارة. وغيرها، باستثناء روسيا نظرًا لعلاقتها الحربية مع الدولة العثمانية،[٣٩] ثم النمسا في فترة لاحقة لنفس السبب.[٤٠]

يتضح من كل ما سبق؛ أن سياسة محمد بن عبد الله الخارجية اتسمت بالانفتاح شبه المطلق. فهل تعتبر هذه السياسة اختيارًا شخصيًا أنبنى على قناعة موضوعية ومصلحة ظاهرة؟ أم أن إكراهات خارجية هي التي دفعت السلطان إلى اتخاذ هذا القرار دون أن يكون له في ذلك محض اختيار؟

إن المصادر التقليدية تذهب إلى الجواب الأول، لكن مراجعتنا لسيرورة وتطور السياسة الخارجية للسلطان، والوقوف مع أهم السمات التي ميزتها وتحليل الشروط التي تم فيها توقيع تلك المعاهدات، يدفعنا إلى تبني الجواب الثاني. فبرجوعنا لمهد سياسة محمد بن عبد الله نجده متحمسًا، بل داعمًا وموجها لعمليات الجهاد البحري،[٤١] وبعد أن لمس مردودها لم يتوانى في تأميمها،[٤٢] والاستمرار في تشجيعه لها؛ لكن الظروف ما لبثت أن حتمت عليه مراجعة مواقفه، فأمر بتوقيف عمليات الجهاد البحري، بل وعمل على معاقبة من خالف ذلك. ومن ثَمَّ، فإن عوامل متعددة تداخلت في صياغة السياسة الخارجية لمحمد بن عبد الله على النحو المشهور تحت اسم "سياسة الانفتاح"، ويمكن أن نجمل هذه العوامل فيما يلي:

- التفوق الأوروبي العسكري والبحري وازدياد الضغط والمواجهة المباشرة (فرنسا ـ هولندا ـ الثغور المحتلة من قبل إسبانيا...) مما جعل أفق الصمود في وجه هذه الضغوطات محدودًا، وأن نجاح عمليات الجهاد البحري الأولى ساعدت فيه العوامل الخاصة بأوربا في حروبها الداخلية، وأن إعادة بناء الصف الأوربي في مواجهة "القراصنة" المغاربة وضع سياسة السلطان في اضطراب ملموس؛ كاتخاذ قرار الحرب ضد السفن الانجليزية سنة ١٧٥٥م بعد طردها من ميناء أكادير، ثم التراجع على جناح السرعة، وإعلان الحرب ضد هولندا ومراجعته كذلك، ثم طلب الصلح من فرنسا بعد هجومها على سلا والعرائش سنة ١٧٦٧م رغم أنها هي الطرف المعتدي.
- ضعف الموارد المالية للدولة ورغبتها في البحث عن مداخيل جديدة، دفعت السلطان إلى اتخاذ العائدات الجمركية، من خلال التعامل مع الأوربيين، موردًا أساسيًا، خال من العواقب السلبية المحتملة للجهاد البحري.

لعل هذين العاملين رئيسيين، وهناك من الدارسين من يضيف عامل لفت أنظار العامة والقبائل بعد الاضطرابات الكثيرة إلى البحر؛ بداية مع الجهاد البحري، ثم ثانيًا مع الأنشطة التجارية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المباشرة مع الأوربيين، لتهدئة الأوضاع الداخلية. إن تناولنا للسياسة الخارجية للسلطان محمد بن عبد الله كان بهدف الكشف عن الخيوط الرابطة بينها وبين التطور الحضري بالبلاد باعتبار هذه السياسة تنعكس حتمًا على المجال الحضري سلبًا أو إيجابًا، وتصبح من بين أهم العوامل المساهمة في تشكيل ذلك المجال وتحديد نوعية الآليات المتحكمة فيه. وقبل أن نرصد حدود استفادة المدن المغربية من هذه السياسة ولإكمال الصورة، لا بد من إجراء نظرة خاطفة حول وضعية المغرب الحضرية قبيل الفترة المدروسة.

ثانيًا: أثر السياسة الخارجية لمحمد بن عبد الله على الحواضر المغربية

١/٢- المميزات العامة للنمو الحضري في المغرب قبيل وصول السلطان محمد بن عبد الله إلى السلطة (١٧٥٧م):

مما لا شك فيه؛ أن كثرة المتغيرات الدولية والداخلية التي عرفتها الحقبة السابقة لتولي محمد الثالث مقاليد السلطة في المغرب الأقصى سنة ١٧٥٧م، قد انعكست بشكل سلبي على الظاهرة المدينية في المغرب. فبعد أن شهد عصر الامبراطوريات الكبرى (المرابطين . الموحدين . المرينيين) ميلاد أكبر التجمعات الحضرية بالمغرب، ووصولها إلى أوج ازدهارها؛ عبر التوسع العمراني، وارتفاع الكثافة البشرية، وتعدد الأنشطة والوظائف ذات الإشعاع الدولي، خيم جو التشرذم السياسي، وتنامت الأخطار الخارجية على المدن المغربية؛ ولم يحكم علها بالتراجع فقط، وإنما وضع بعضها، خاصةً المدن الساحلية، تحت الاحتلال المباشر للقوات الأجنبية، مما حذا بأهلها والظهير المحيط بها إلى إفراغ تلك المناطق. إضافة إلى توالي فترات الأوبئة والجفاف والصراعات السياسية،[٤٣] دخلت بموجبها مدن المغرب في تقهقر عام خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي،[٤٤] واستفحلت بالمقابل ظاهرة البداوة.[٤٥]

ويمكن إجمال مظاهر الأزمة التي عاشتها هذه المدن في العناصر التالية:

- تأثر العواصم التاريخية (فاس ـــــ مراكش...) بالمتغيرات الاقتصادية المحلية والدولية، وتراجع أهميتها ووهجها السابق.
- أفول نجم بعض المدن ذات الأدوار التجارية الكبرى خلال العصر الوسيط (أغمات . سجلماسة...).
- تكريس ظاهرة تخريب المدن بين القوى السياسية الداخلية المتناحرة، أو بفعل الهجومات الخارجية.
- رغم تحرير بعض الثغور زمن السلطان إسماعيل، مثل استرجاع: باديس سنة ١٠٩١هـ،[٤٦] المعمورة سنة ١٠٩٢هـ،[٤٧] والعرائش سنة ١١٠١هـ،[٤٨] وأصيلة سنة ١١٠٣هـ[٤٩] من يد الأسبان، وطنجة من يد الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ؛[٥٠] فإن خطر غزوها من جديد ظل قائمًا، خصوصًا مع استمرار احتلال سبتة ومليلية من قبل إسبانيا، وثغر البريجة من قبل البرتغال.

هذه العوامل أثرت سلبًا على عمران المدن الساحلية وساكنتها. كل هذا لا يلغي توسيع دائرة امتداد بعض المراكز الحضرية الأخرى: ازدهار إيليغ وتارودانت في منطقة سوس، وإعادة بناء تطوان وشفشاون، كما عرف الساحل الأطلسي ميلاد العديد من الحصون البرتغالية في المدن المحتلة قبل أن يتم استرجاعها: (آسفي . أزمور . فونتي...).

وعمومًا، احتفظت هذه المدن بنفس الأنشطة المزاولة ونفس الهياكل والنظم الإدارية، مع تعديلات بسيطة، لم تكن بالعمق الذي من شأنه إحداث قطيعة أو تغيير جذري. ومن الناحية المعمارية، استمرت المدن في تكييف منشآتها لمقاومة السلاح الناري منذ الحقبة السعدية، على مستوى التحصينات العسكرية كإقامة الباستيونات والصقالات. كما امتزجت الفنون الزخرفية والأساليب المعمارية ببعض العناصر الخارجية كالتأثيرات الموريسكية والبرتغالية.[٥١] يظهر إذن؛ أن المدن المغربية في هذا العصر، واجهت تحديات داخلية وخارجية، وعانت من عواقب تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية، والغزو الأجنبي، ورجحت فيها كفة التراجع على عدة مستويات، في وقت تميزت فيه نظيرتها في أوربا بنمو سريع وغير مسبوق.

٢/٢- التطور الحضري في عهد محمد بن عبد الله وعلاقته بالسياسة الخارجية للسلطان:

لقد ظهرت آثار السياسة الخارجية للسلطان محمد بن عبد الله على المدن المغربية سواء منها الداخلية أو الساحلية في ظرف وجيز، وبحكم توجهه في البداية إلى إنعاش الجهاد البحري، فقد أولى عناية خاصة بالمراسي الصالحة لهذا الغرض، ثم التفت إلى باقي المدن الساحلية، أسس مدينة جديدة استجابة لمتطلبات سياسته الخارجية، وكان للمدن الداخلية بدورها نصيب من الحركية الحضرية في هذه الحقبة.

أ . المدن الساحلية:

انعكست سياسة الانفتاح التي نهجها محمد بن عبد الله بشكل مباشر على المدن الساحلية المغربية. وبفعل اهتمامه، في بداية حكمه، بالأسطول وتشجيعه للجهاد البحري، فقد رنت عنايته بالأخص إلى المرافئ، فكان "يتفقد باستمرار الموانئ، يرمم بروجها و أسوارها ويجدد حاميتها..."."[٥٢] هذه العناية انعكست فورًا على معظم المدن الساحلية؛ فمدينة العرائش[٥٣] مثلاً كانت سنة ١٧٦٠م "خالية ليس فيها إلا المائتين من أهل الريف..."،[٥٤] وفي سنة (١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م)، اتجه السلطان إلى "ترميمها واستصلاحها فبنى الصقائل والأبراج بها..."،[٥٥] وصارت "من أعمر الثغور."[٥٦] ونالت منه أنفًا (الدار البيضاء) عناية خاصة بعدما دمرها زلزال سنة ١٧٥٥م؛ فأمر ببناء مرساها وسورها وداره بها سنة (١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م)،[٥٧] وأنشأ بها وبطنجة الأبراج والسقائل.[٥٨] وقد شرع في إصلاح ميناء فضالة سنة (١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م)[٥٩] بعدما رغب في تعميرها واعتنى بها،[٦٠] وأمر ببنائها في سنة (١١٨٥هـ/ ١٧٧٢م)،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وسمح للنصارى بتشييد الدور بها، و"كان في ذلك أمر عظيم من العمارة من اليهود والنصارى والمسلمين..."[٦١] كما حصن قصبة الرباط وأدخل بها عدة إصلاحات،[٦٢] واستحدث أكدال الرباط،[٦٣] وأقام صقالتي سلا والرباط[٦٤] (انظر الملاحق: صورة ١، ٢، ٣)، وبنى برج تيطاوين،[٦٥] وبرج مارتيل،[٦٦] أو دار على مرساها.[٦٧] وأنشأ أو أصلح بعض المرافق في مدن أخرى كآسفي، وتيط،[٦٨] والمهدية (المعمورة)، وأزمور، وأصيلا.

ورغم هذه الإصلاحات الملموسة؛ فإن هذه المدن قد تضررت جراء قرار محمد بن عبد الله، بتركيز المعاملات مع الأجانب في ميناء الصويرة.[٦٩]

ويبقى تأسيس الصويرة الجديدة (انظر الملاحق: صورة ٤، ٥، ٦) أبرز مشروع حضري للسلطان محمد الثالث؛ حيث استأثر بأكبر اهتمامه، وسهر بنفسه على إنشاء المدينة[٧٠] سنة ١٧٦٥م؛ و"حصنها وأنفق عليها مالاً عظيمًا."[٧١] يقول ابن زيدان في هذا الصدد: "وبنا له [ثغر الصويرة] الأسوار العجيبة واتخذ به البساتين وشحنه بالمدافع والبنب والكور، فجاء من أعظم المدن وأشرف الثغور، واتخذ به المساجد والصوامع والأسواق والدور والحمامات ورغب في سكنى هذا الثغر المبارك الناس، وقصده التجار وغيرهم من جميع الأجناس."[٧٢] وأهم ما امتاز هذا الثغر هو حصانته الشديدة وصلاحية مينائه لرسو السفن على امتداد السنة بخلاف باقي المدن الساحلية.[٧٣] وقد استفادت هذه المدينة من الإجراءات التشجيعية التي اتخذها السلطان لتعميرها؛ ففضلاً عن إجبار قسم من القبائل والعلماء على الإقامة بها، من فاس وغيرها،[٧٤] أسقط عن التجار والوافدين إليها "وظيف الأعشار"،[٧٥] مما جعل هؤلاء يتوافدون عليها من كل مكان.[٧٦] وصارت "في غاية العمارة"،[٧٧] وتبوأت في ظرف وجيز مكانة مهمة.

نسجل إلى جانب ما سبق، وعلى نقيض باقي المدن الساحلية، تعرضت مدينة أكادير للتهميش. بل إن العديد من الروايات تذهب إلى أن إنشاء الصويرة كان لهذا الغرض،[٧٨] قصد قطع الإمدادات التي كان يتقوى بها الثوار في منطقة سوس والتي كان يذرها ميناء أكادير، "...إذ أن حصن أكادير كانت تتداوله الثوار من أهل السوس ... ويسرحون وسق السلع منه افتياتا ويستبدون بأرباحها..."[٧٩] ويفسر البعض إغلاق ميناء أكادير بضعف تحصيناته وبكونه "غير محمي من الزعامات المحلية ومن المطامع الأجنبية، لبعده عن السلطة المركزية..."[٨٠] و رغم نجاح محمد بن عبد الله في استرجاع البريجة من البرتغاليين، فإنها لم تلق أي اهتمام، وبقيت على حالها من الخراب الناتج عن حرب التحرير، مما دفع الناس إلى تسميتها بـ: "المهدومة".[٨١] كما حاول حصار سبتة،[٨٢] ومليلية[٨٣] عدة مرات؛ لكنه يئس من إمكانية استرجاعهما إلى جانب بادس، والنكور.[٨٤]

والملاحظ أن الانتعاش الذي عرفته معظم المدن الساحلية، لم يكن وليد ظروف محلية ولا استجابة لتطور في وسائل الإنتاج، بقدر ما أملته امتدادات التجارة الأوربية، مما جعل الاستفادة الظاهرية والمؤقتة، نسبية و مرتبطة بعوامل خارجية مرتهنة بها، ومن ثَمَّ يحق لنا أن نتساءل عن طبيعة هذا التحول الحضري، هل ارتكز على أسس متينة؟ وهل اشتمل على مقومات القوة والاستمرار؟

ب . المدن الداخلية:

لا يمكن فصل المدن الداخلية عن الحركية التي عاشها المغرب في عهد محمد بن عبد الله بفضل الاستقرار السياسي واسترجاع الاقتصاد المغربي لجزء من عافيته، وعناية السلطان الخاصة بمراكش بعد أن وجدها إبان نزوله بها نائبًا عن أبيه، وقصبتها إذاك خراب،[٨٥] "لا عمارة بها إلا البوم على الجدران الخربة من آثار السعديين و الموحدين..."،[٨٦] فجدد وأسس العديد من منشآتها، حيث عمل على "تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته، وضريح الشيخ التباع ومسجده، وضريح الشيخ الجزولي ومسجده، وضريح الشيخ الغزواني ومسجده، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده ... ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه، وتجديد جامع المنصور والمسجد الأعظم بباب دكالة والمسجد الأعظم بباب هيلانة والمسجد الأعظم بالرحبة ومساجد القصبة ومدارسها الست..."[٨٧] لكن أبرز جهوده في هذه المدينة اتجهت لتشييد القصر.[٨٨] كما اعتنى بالعاصمة الإسماعيلية مكناس عبر إنشاء "المسجد الأزهر ومدرسته بإصطبل مكناسة ومسجد البردعيين بها وضريح الشيخ ابن عيسى، وضريح الشيخ أبي عثمان سعيد ومسجده ومدرسة الدار البيضاء، ومسجد بريمة ومدرسته، ومسجد هدراش، ومسجد باب مراح..."،[٨٩] وغيرها.[٩٠]

واتجه في فاس إلى تشييد "ضريح الشيخ علي بن حرزهم، وضريح الشيخ دراس بن إسماعيل، وضريح أبي عبد الله التاودي، ومدرسة باب الجيسة..."،[٩١] و"زيادته في توسعة مسجد الشرابليين من طالعة فاس وتصييره له مسجدًا جامعًا تقام فيه الجمعة... و... بناؤه الباب المواجهة لقبة الضريح الإدريسي الموالي لسوق المجادليين."[٩٢] كما أسس بها "سقاية عين البغل من حومة العيون"،[٩٣] فضلاً عن ثلاثة أقواس بقنطرة وادي سبو[٩٤] خارج المدينة. كما استفادت مدن أخرى من بعض الاهتمام، مثل: سجلماسة،[٩٥] والريصاني، وتازة،[٩٦] والمنصورية.[٩٧] وتبقى هذه العناية غير جديرة باسترجاع تلك المدن لإشعاعها السابق، خاصةً مع سياسة الانفتاح التي جعلت المدن الساحلية تستأثر بمعظم الأنشطة الاقتصادية. كما نلاحظ بأن شطرًا معتبرًا من المنشآت المذكورة إنما اكتفى السلطان بتجديدها ليس إلا؛ مما يعني أن المدن الداخلية في هذه الحقبة اتجهت، في أحسن الأحوال، إلى استرجاع جزء من مظهرها وماضيها، والحفاظ على كيانها.

٣/٢- انعكاس التحولات الحضرية في عهد محمد بن عبد الله على بنية المدن المغربية:

أ . القاعدة الاجتماعية:

إذا كان المسار التاريخي الطويل للمدن المغربية قد أفرز طوائف وفئات ارتبطت مصالحها بأنشطة معينة تزاولها في المدينة: (تجار .

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

حرفيون . فقهاء . شرفاء وصوفية... إلخ)؛ فإن بداية التغلغل الأوربي بالمدن المغربية قد أفرز فئات اجتماعية جديدة ارتبطت مصالحها مباشرة بمصلحة الأوربيين؛ أثارت تنازلاتهم وخضوعهم للابتزاز الأخلاقي من قبل النصارى حفيظة المغاربة،[٩٨] وتشكلت من الوسطاء والسماسرة، إلى جانب التجار من اليهود المغاربة.[٩٩] هذه الفئات لن تفتأ تبحث لها عن مكانة تناسبها معززة في ذلك بالدعم الخارجي، ومحدثة شرخًا جديدًا في مكونات المدينة المغربية. وبدأنا نلمس مقدمات التسلل الأوربي لإقرار ظاهرة "الحماية القنصلية"،[١٠٠] التي قامت فيما بعد بأدوار خطيرة في تاريخ المغرب. يتضح ذلك من خلال الصلاحيات الواسعة التي خولت للقناصل الأوربيين المقيمين في الموانئ والمدن المغربية.[١٠١] ففضلاً عن الحقوق الشخصية المكفولة لهم، نجدهم تمتعوا بامتيازات أخرى تحد من سلطة المخزن تجاه الرعايا الأجانب وبعض المتعاونين معهم من المغاربة، كما تضمنت بعض المعاهدات كما حصل مع فرنسا "وضع صيغة لجواز البحر بالنسبة لسفن البلدين وتكفل القناصل الفرنسيون بتأشير الجواز لرعايا البلدين معًا"،[١٠٢] وهو ما خول لفرنسا مراقبة تحركات الأسطول المغربي عن كثب، بل إحصاء أنفاسه والتطورات الحاصلة فيه، وتجلى ذلك عمليًا عبر التقارير السرية التي كانت ترفع إلى الحكومة الفرنسية بواسطة قنصلها شيني.[١٠٣]

ب . الأساس الاقتصادي:

كانت المنشآت المتعددة مصدر قوة نسبية للمدن المغربية من خلال الأنشطة المتنوعة التي شكلت قلبها النابض، والدولاب المحرك لباقي عناصرها، والوسيلة التي ربطتها بمحيطها القريب والبعيد؛ غير أن أسواق المدن المغربية تعرضت، بفعل سياسة الانفتاح في عهد محمد بن عبد الله بالمنتجات الأوربية، وبحكم الامتيازات المخولة للأجانب بنصوص المعاهدات، إلى غزو البضائع الأجنبية من جهة، والتهافت على استنزاف المواد الأولية المحلية التي تتوقف عليها تلك الأنشطة الحرفية من جهة ثانية. تضافرت هذه العوامل مع غيرها، وسددت ضربة موجعة لاقتصاديات المدن المغربية، بل وتسببت في كساد العديد من ورشات الحرف والصنائع في مدينة فاس وغيرها،[١٠٤] وأسفرت بالتالي عن خنق الصناعة المحلية لفائدة المواد المصنعة الأجنبية، وتضرر السكان جراء نقص الحاجيات الغذائية الموجهة للتصدير. إن الفلاح أو التاجر المغربي الذي كان يحمل السلع والبضائع إلى الموانئ، لم يكن قادرًا على مواجهة الاكتساح الأوربي للأسواق المغربية وغير مؤهل لإدراك مراميه، ولم يكن يملك مقومات فرض الشروط التي يرتضيها للاستفادة من معادلة المبادلات مع التجار الأوربيين.

ت . مؤسسات المدينة:

لقد أفضت السياسة الخارجية لمحمد بن عبد الله؛ أو على الأصح إلحاح القوى الأوربية على طرق السواحل المغربية، إلى تعزيز الجهاز الحكومي المخزني بوظيفة جديدة تمثلت في: وزير شؤون البحر،[١٠٥] وباستثناء استحداث بيت مال خاص في كل مرسى من مراسي المغرب، تفتح عند تمام كل ثلاثة أشهر،[١٠٦] لم تتمكن المدن المغربية في هذه الحقبة من بلورة مؤسسات تستجيب لمتغيرات المرحلة، إن على مستوى الأنشطة أو الحضور البارز للعنصر الأجنبي غير المسبوق. ولم تتفاعل أجهزة القضاء والحسبة ونقابات المهن مع هذا المعطى بما يتطلب من اجتهاد وكياسة وحزم. الأمر الذي سمح لليهود المغاربة باقتناص الفرصة في القيام بأدوار الوساطة والترجمة والمضاربة والرهن وغيرها من المهام التي بقيت حكرًا عليهم إلى جانب قلة من "الوصوليين" المغاربة في ظل الفراغ التنظيمي والمؤسساتي. إن سياسة محمد بن عبد الله الخارجية بقدر ما ساهمت في انبعاث الحياة الحضرية في المدن الساحلية، بقدر ما كانت أيضًا مقدمة لتطورات هددت هذه الحواضر في صلب كيانها، ورهن مواردها وقرارها بيد جهات تحذوها أطماع غير محدودة.

ثالثا: تقويم التطور الحضري في ظل سياسة الانفتاح

١/٣- حقيقة سياسة الأبواب المفتوحة ومآلاتها:

لقد وفرت سياسة محمد بن عبد الله الخارجية مداخيل جمركية هامة، وأدت إلى تنشيط الحركة التجارية في المحيط الأطلسي والمدن المغربية المطلة عليه، مما ساهم في تعميرها بشكل ملحوظ، بل أيضًا تعمير البسائط والسهول المجاورة لها بعدما عانته من فراغ قبل ذلك.[١٠٧] كما جنبت السلطان سلبيات المواجهة المباشرة مع القوى الامبريالية الأوربية المندفعة نحو بلاده، وتمكن من خلال ازدواجية الانفتاح وتشجيع الجهاد البحري في الفترة الأولى من حكمه أن يضمن نوعًا من التوازن في المعاهدات مع الأوربيين بشكل عام.

بيد أن هذه السياسة لم تمضي دون آثار جانبية، استفحلت أخطارها مع تزايد الأطماع الأوربية وتأكد عجز المغرب عن الدفاع على مصالحه. ولقد كانت الفرصة ما تزال سانحة لتدارك النقص ومسايرة التطورات الأوربية على قاعدة التنافس وتبادل المصالح؛ لكننا نسجل تفضيل السلطان محمد بن عبد الله للإيرادات العاجلة رغم توفره على مداخيل ضخمة،[١٠٨] كان يستخلصها من الجمارك والاحتكارات والمكوس. والأدهى أن تلك الأموال لم تأخذ طريقها إلى الإنفاق في مشاريع كبرى ذات نفع سيادي عام؛ مثل صناعة الأسلحة الثقيلة؛ أو ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى كما هو الحال بالنسبة لصناعة السفن، القادرة على خوض عباب البحر إلى جانب الأوربيين بدل الاعتماد عليهم في تجهيز الأسطول البحري مما دلت التجربة على عدم إمكانية استمراره لوقت طويل؛ خاصةً وأن الفرصة كانت قد واتت السلطان محمد بن عبد الله بوصول مجموعة من الخبراء الأتراك؛ أرسلهم إليه نظيره العثماني مصطفى الثالث في إحدى سفاراته إلى المغرب سنة ١٧٦٧م، ضمت ثلاثين من "المعلمين الاختصاصيين العارفين بإنشاء الأساطيل وصب المدافع وعمل القنابل والمجيدين في الرماية وفنون الحرب... ولما وصلوا

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

للحضرة فاوضهم في إنشاء دار صناعة الأساطيل فرسموا خريطتها وبينوا أشكلها وأسلوبها وما يلزمها من النفقة الباهظة وطول المدة فأعرض عنها واستخدمهم في شؤون أخرى ...".[١٠٩]

إن الاستثمار الأمثل لهذه الفرصة كان بإمكانه وضع "القطار المغربي" على سكته الصحيحة، وأن يؤدي إلى توطين مهارات الصناعات الحديثة في بلد ظلت فيه هذه التقنيات عزيزة المنال. كما أن الإقدام على تلك الخطوة وأمثالها كان كفيلاً بمنافسة القوى العالمية الكبرى في إحدى أسرار تفوقها ونهضتها، وهي السيادة على البحار.[١١٠] ولم تستثمر كذلك شروط المعاهدات التجارية الضامنة لتأمين ملاحة التجار المغاربة لتكثيف حضورهم في الأسواق الأوربية. والغريب أنهم على مر قرون من الزمن تجشموا مشاق التجارة الصحراوية وما كلفتهم من جهود وتضحيات؛ لكنهم لم يفعلوا نفس الشيء تجاه الأوربيين الذين كانوا أكثر جرأة في طرق الأسواق المغربية؛ مما جعلهم دائما أصحاب المبادرة في البحث عن أسواق جديدة، والأقدر على تطوير وسائل وأدوات الملاحة البحرية.

إن اهتمام المخزن المغربي في تلك الحقبة بالصناعات الحديثة وتنشيط التجارة البحرية المغربية، كان بإمكانه أن ينعكس إيجابًا، لا على امتلاك أعنة البحر وتهيئ سبل ازدهار المدن والحواضر فحسب، بل أيضًا على فتح مجال جديد لإبداع المغاربة تنصرف إليه جهودهم العقلية والبشرية. وبالمقابل، فضل السلطان صرف تلك الثروات الطائلة و الأموال الوافرة في أمور ثانوية،[١١١] أو تجميدها مكتنزة.[١١٢] فهل يعني كل هذا أن قصور المغرب في المستقبل عن ملاحقة جيرانه الأوربيين قد انطلق منذ هذه الوهلة؟ وهل تشكل هذه الفترة البداية الفعلية للتغلغل الاستعماري بالمغرب الأقصى؟ أم أن الوضع كان أشد تعقيدًا، وأن التراكمات التي صاغت تطور البلاد تداخلت فيها عدة عوامل يصعب حصرها في عنصر واحد وتحديد بدايتها في فترة معينة؟

٢/٣- عناصر ضعف التطور الحضري في عهد محمد بن عبد الله:

إن الطفرة المثيرة التي حققتها المدن/ الموانئ المغربية، فجأة في عهد السلطان محمد بن عبد الله، يوحي بانبعاثها واكتسابها، أو استرجاع البعض منها لمفاتيح القوة والنماء؛ غير أن إلقاء نظرة فاحصة تنبؤنا بعكس ذلك تمامًا. فهذه الحركية الدائبة لم تكن وليدة تطور داخلي ولا تقدم علمي أو تحسن في تقنيات ووسائل الإنتاج، بل نجمت عن التسابق الأوروبي المحموم إلى الأسواق المغربية التي استعصت على الانفتاح من ذي قبل رغم قربها وأهميتها الاستراتيجية وثقلها الديمغرافي. ويتبين ذلك من نوعية السلع المتبادلة، فالمواد الموجهة للتصدير ظلت في معظمها فلاحية (نباتية أو حيوانية) وعبارة عن مواد خام: (تبر . ريش النعام . تمر . نيلة . جلود . سبائك النحاس . الشمع . القصدير . الصوف...)،[١١٣] بينما كان قسم كبير من السلع الأوربية الواردة عبارة عن مصنعة: أقمشة وعقاقير وسكر وسكاكين ومقصات ومشط وإبر وأقفال وغيرها.[١١٤] كما أن تنامي العلاقات التجارية بهذا الشكل جعل استقرار الدولة المغربية ورفاهيتها "تحت رحمة نشاط يتحكم فيه الأجانب".[١١٥]

كما يتكشف لنا وجه القصور في العلاقة بين التطور الحقيقي لتلك المدن الساحلية وبين "الزوبعة" الناجمة عن سقوط الأسواق المغربية بيد المؤسسات التجارية الأوربية، من خلال ضعف الخبرة المحلية، فباستقراء المصادر التي تحدثت عن الإنشاءات المضافة لعدة مدن، يتبين مدى الاعتماد الكبير على الخبرة الأجنبية.[١١٦] فمدينة الصويرة مثلاً، صممها وأشرف على بنائها المهندس الفرنسي: كورنت،[١١٧] كما أن المهندس الأوربي: باول هو مَنْ أشرف على إنشاء أكدال الرباط.[١١٨] وإذا كانت الاستعانة بالخبرة الأجنبية لا تمثل نقصًا في حد ذاتها؛ فإن غياب مقومات الاستمرار هي عين الخلل الذي يفقد كل تغيير طارئ محتواه؛ فمثلاً بناء الأسطول المعتمد في تجهيزه وتسليحه على الخبرة الأجنبية سرعان ما انقضى مفعوله بل شلت حركته، ويعزز هذه الفرضية كون التململ الذي حدث بالمدن الساحلية المغربية لم يرافقه استحداث البنيات الأساسية الكفيلة بالاستجابة لمقتضيات تحديث هذه المدن وتطويرها، ويظهر ذلك من خلال:

- ضعف وسائل النقل وعدم استصلاح الطرق.[١١٩]
- العجز عن استصلاح وتجهيز الموانئ التي لم تكن تصلح للملاحة شهرين في السنة. والاستعاضة عن ذلك بتشييد مدينة الصويرة ذات المرسى الصالح للملاحة طيلة شهور السنة.[١٢٠]
- عدم تطوير وسائل الإنتاج الفلاحي. وعدا محاولات معدودة ذات بعد استعراضي وتمجيدي في بناء بعض السفن، نسجل غياب أي التفات لأهمية الصناعات الحديثة والاكتفاء باستيراد واستهلاك وسداد ما جادت به الآلات الأوربية.
- غياب نهضة علمية مصاحبة للتحولات السطحية التي لاحت في الأفق خلال فترة حكم محمد بن عبد الله، تكون جديرة بإعطائها مضمونًا أغنى، وإمدادها بأسباب المنافسة والاستمرار.

هذه المظاهر تعكس حقيقة النمو الحضري في عهد محمد بن عبد الله الذي يبدو أنه كان "مصطنعا"؛ لأنه لم ينبثق عن بواعث ذاتية ناتجة عن تطور داخلي طبيعي، و لم يستند إلى أسس متينة يستمد منها مقومات الاستمرار؛ بقدر ما كان رهينا بعوامل خارجية يطبعها عدم الاستقرار. كما أن الأوربيين الذين ساهموا في تحولات هذه الفترة لم تكن تهمهم سوى مصلحتهم في المقام الأول. وهذه المصلحة لن تلبي بالضرورة حاجيات الحواضر المغربية؛ إن لم تتسبب في الإضرار بها.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

صحيح أن المدن المغربية عرفت بعض التحول في عهد محمد بن عبد الله، وبدت في معظمها كأنها تكتسي حلة جديدة، خاصة منها الحواضر الساحلية، كما بدا مفتاح التغيير نابعًا من القرارات التي اتخذها السلطان العلوي محمد الثالث في سياسته الخارجية؛ غير أن الحقيقة التي لا جدال فيها هي أن مجمل هذه التحولات نجمت عن عوامل لم يتحكم فيها السلطان نفسه، وارتبطت بما كان يتفاعل حول المغرب من تطورات بالضفة الأوربية؛ الأمر الذي جعل تلك التحولات الحضرية ظرفية سرعان ما عصفت بها الرياح مع تعاقب السنين. كما اتضحت حقيقة أخرى مفادها أن نمو وازدهار التجمعات الحضرية الداخلية في تاريخ المغرب كانت له علاقة بقوة الدولة واستنادها إلى إمكانياتها الذاتية؛ في حين أن الاعتماد على الخارج أدى إلى انقلاب هذه المعادلة لصالح المدن الساحلية.

الملاحق

صورة رقم (١)

صورة رقم (٢)

صقالة الرباط من زوايا مختلفة

صورة رقم (٣)

قصبة الرباط و تبدو الصقالة في مقدمتها تجاه البحر

صورة رقم (٤)

صورة رقم (٥)

بعض صقالات مدينة الصويرة

صورة رقم (٦)

أحد أبواب مدينة الصويرة العتيقة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) ابن زيدان، عبد الرحمان "**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**" مطابع إديال . الدار البيضاء . الطبعة الثانية . ١٩٩٠ . الجزء الثالث. ص ١٤٥- ١٤٦.

(٢) الناصري، أحمد بن خالد "**كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**" تحقيق أحمد الناصري . منشورات وزارة الثقافة والاتصال . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء . ٢٠٠١ . الجزء السابع. ص ٩.

(3) BRAUDEL Fernand , *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Armand Colin, Paris, 1966, T I, p 12.

(٤) وصلت إلى حد المواجهة وإقدام الأتراك العثمانيين على احتلال فاس قبل أن يسترجعها محمد الشيخ السعدي من أيديهم، كما وقفت فرقة من الأتراك وراء مقتل هذا السلطان السعدي في مدينة تارودانت (انظر: مجهول "**تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية**" تحقيق: عبد الرحيم بنحادة . مطبعة دار تينمل للطباعة و النشر . مراكش . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . من ص ٢٢ إلى ص ٣٣). أما في العصر العلوي، فقد نشبت بعض الاشتباكات على الحدود في عهد السلطان إسماعيل (انظر: التازي، عبد الهادي "**التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**" المجلد التاسع: عهد العلويين ١ . مطابع فضالة . المحمدية . ١٩٨٨. من ص ١٧ إلى ص ٢١).

(٥) ربما يكون محمد بن عبد الله قد بعث إلى السلطان عبد الحميد بمفرده زهاء ٢٠ سفيرا. الزياني، أبو القاسم أحمد "**الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا الشريف بن علي** . منقول من كتاب **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**" مطبعة الجمهورية . باريس . ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م . ص ٨٥.

(٦) انظر: الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين. م س. ص ٧٨ و ٨٥ . الضعيف، محمد بن عبد السلام الرباطي "**تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**" تحقيق أحمد العماري . نشر دار المأثورات . الرباط . الطبعة الأولى ١٩٨٦. ص ١٩١ . ١٩٣ . ١٩٥ . إتحاف أعلام الناس. ج ٣.م س. ص ١٦٢-١٦٦-١٦٧-١٨٣ ومن ص ٢٩٧ إلى ص ٣٠٨ . التاريخ الدبلوماسي للمغرب. مج ٩. م س. ص ٢٥ . ٢٦ . ٢٩ . ٣١ . ٣٤ . ٣٦ . ٤٠ . ٤١.

(٧) لزياني، أبو القاسم "**البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف**" القسم الأول: من النشأة إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله . دراسة و تحقيق رشيد الزاوية . مطبعة المعارف الجديدة . الرباط . الطبعة الأولى . ١٩٩٢. ص ٤٨٣.

(٨) انظر: **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س.ص ٢٥٩.

(٩) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٩١.

(١٠) م ن. ص ١٨٧.

(١١) م ن. ص ١٩٧ . الاستقصا.م س. ج ٧. ص ٥٣ . بوكبوط، محمد "**الإصلاحات السياسية والاقتصادية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ونتائجها: ١٧٥٧ . ١٧٩٠م**" رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ . جامعة سيدي محمد بن عبد الله . كلية الآداب و العلوم الإنسانية . فاس . ١٩٨٦ . ١٩٨٧م. ص ١٠٩-١١٠.

(١٢) **الاستقصا**. ج ٧.م س. ص ٤٧.

(١٣) م ن. ص ٧٦.

(١٤) انظر: **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص. ٢٢٦-٢٣٣ . **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٨٦.

(١٥) الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين. م س. ص ٧٨ . الاستقصا. ج ٧.م س. ص ٤٧ . حركات، إبراهيم "**المغرب عبر التاريخ**" دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء . الطبعة الثانية . ١٩٩٤ . ج ٣. ص ١٠٨- ١٠٩.

(١٦) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١٠٧.

(١٧) انظر مداخيل بيوت أموال المراسي في هذه الحقبة: الزياني، أبو القاسم "**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**" تحقيق عبد الكريم الفلالي . مطبعة المعارف الجديدة . الرباط . الطبعة الثانية ١٩٩١. ص ١٣٢.

(١٨) انظر نماذج منها في:

PEYREIGNE, Charles, *Les influences européennes au Maroc avant la conférence d'Algésiras*, Ch. Dirion, Librairie Editeur, Imprimerie du Rapide, Toulouse, pp 46-47.

(١٩) من ذلك مثلاً الالتزام بإيواء السفن الفرنسية المطاردة من قبل سفن الجزائر وتونس وطرابلس، بل وإبعاد خطرها عبر التصدي لها... انظر:

Les influences européennes au Maroc, op. cit, p 46

(٢٠) جاء في شهادة أحد الأسرى الفرنسيين في عهد السلطان إسماعيل أن هذه الموانئ المنفتحة على الأجانب تمثلت في: تطوان والقصر وسلا وأزمور وأسفي وأكادير. انظر: "**رحلة الأسير مويط**" ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر. مركز الدراسات والبحوث العلوية . الريصاني . إصدار وزارة الثقافة . دار المناهل للطباعة و النشر. ١٩٩٠ . ص ١٤٤.

(٢١) أهم المواد التي كان يحظر تصديرها: الحبوب:

THOMASSY, Raymond, *Le Maroc et ses caravanes ou Relations de La France avec cet empire*, Imprimeurs de L'institut de France, Deuxième édition, 1845, p 225.

والخيول: رحلة الأسير مويط. م س. ص ١٤٤. وكانت الكنيسة الكاثوليكية بدورها تحظر على الممالك المسيحية تصدير الأسلحة إلى المسلمين. انظر: م ن. ص ١٤٤.

(٢٢) أعقبت معاهدة سنة ١٧٥٣م، ثم مفاوضات سنة ١٧٥٥م.

Les influences européennes au Maroc, op. cit, p 56 - RABIH, Saied, Le regard français sur les envoyés marocains du XVIIe et XVIIIe siècles, Mémoire de D.E.A, Université Paris VIII Vincennes Saint-Denis, 1999-2000, p 88.

(٢٣) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٢٨٣-٢٩٠ . **المغرب عبر التاريخ**. م س. ص ١١٣.

(٢٤) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٢٧٧ – ٢٨٣.

Les influences européennes au Maroc, op. cit, p.58 . *Le regard français sur les envoyés marocains*, op. cit, p 88.

(٢٥) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٠١ . ١٠٣ . وحسب البعض، سنة: ١٧٥٧م.

Le regard français sur les envoyés marocains, op. cit, pp 87- 88. و سنة: ١٧٦٣م.

(٢٦) أورد بريني معاهدتين وقعتهما إسبانيا مع المغرب في عهد محمد بن عبد الله، الأولى: اتفاقية سلم وتجارة سنة ١٧٦٧م، والثانية: معاهدة صداقة وتجارة سنة ١٧٨٠م.

Les influences européennes au Maroc, op. cit, p 31

(٢٧) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٣٠٨-٣٢٠ . **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٤- ١١٦.

(٢٨) م ن. ص ٢٦٥-٢٦٧ . م ن. ص ١١٢-١١٣.

Les influences européennes au Maroc, op. cit, p 46 . *Le regard français sur les envoyés marocains*, op. cit, p 88.

(٢٩) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٢٩٠-٢٩٧.

Le regard français sur les envoyés marocains, op. cit, p 88.

(٣٠) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ٨٢.

(٣١) جادة، محمد "**الملاحة في اتفاقيات المغرب الدولية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر**" ضمن ندوة: البحر في تاريخ المغرب . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية . المحمدية . سلسلة ندوات رقم:٧ . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء . ١٩٩٩. ص ٢٤٦.

(٣٢) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٦ . و حسب بريني سنة ١٧٨٣م. *Les influences européennes au Maroc*, op. cit, p 58.

(٣٣) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٥.

(٣٤) **الملاحة في اتفاقيات المغرب الدولية**. م س. ص ٢٥١.

(35) *Les influences européennes au Maroc*, op. cit, p 58 - *Le regard français sur les envoyés marocains*, op. cit, p 88.

(36) Ibid.

(٣٧) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٣٢٣ . ٣٣٠.

(٣٨) م ن. ص ٣٢٠ . ٣٢٣.

(٣٩) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١١٢.

(٤٠) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٦.

(٤١) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٦٩ . ١٧٠.

(٤٢) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ٩١.

(٤٣) وحتى في عهد السلطان إسماعيل الذي تصوره المصادر التقليدية على أنه عصر "الاستقرار" السياسي و"الازدهار" الاقتصادي، تصف إحدى الشهادات الحية من قبل أحد السفراء الفرنسيين، بعض مدن المغرب في تلك الحقبة وقد هيمنت عليها ظاهرة الخراب وتراجع الساكنة؛ مثل فاس، انظر:

FRANÇOIS, Pidou De Saint-Olon, *Relation de l'empire de Maroc ou l'on voit la situation du pays*, les mœurs, coutumes, gouvernement, religion & politique des habitants, Veuve Mabre Cramoisy, Paris, p 16. والقصر الكبير: Ibid. p 30 . و سلا: Ibid. p 28

(٤٤) مدينة فاس مثلا فقدت حوالي الثلثين من ساكنتها وأكثر من ذلك من دورها وحوانيتها (القادري، محمد بن الطيب "**نشر المثاني لأخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني**" الجزء الثالث، ضمن **موسوعة أعلام المغرب** لمحمد حجي . ج ٥ . دار الغرب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٩٦ . ص ٢٠٨١).

(٤٥) **الإصلاحات لسياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٨٥.

(٤٦) ابن زيدان، عبد الرحمن "**المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**" تحقيق عبد الهادي التازي . مطبعة إديال . الدار البيضاء . الطبعة الأولى . ١٩٩٣ . ص ١٣٤ . ويبدو أن هذا الثغر أعيد احتلاله لأن المؤلف عاد وذكر تحريره مرة أخرى سنة ١٠١٣هـ انظر: م ن. ص ١٤٣.

(٤٧) **المنزع اللطيف**. م س. ص ١٣٤ . ١٣٧ . اليفراني، محمد الصغير "**روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف**" تحقيق عبد الوهاب بن منصور . المطبعة الملكية . الرباط . الطبعة الثانية . ١٩٩٥ . ص ٧١ . ٧٢ الوفراني، محمد الصغير بن الحاج النجار المراكشي الوجار "**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**" صحح عباراته هوداس . مطبعة بردين . أنجي . ١٨٨٨ . ص ٣٠٦.

(٤٨) **روضة التعريف**. م س. ص ٧٣. ٧٦ . **نزهة الحادي**. ص ٣٠٧ . **المنزع اللطيف**. م س. ص ١٤٠ . ١٤٢.

(٤٩) **المنزع اللطيف**. م س. ص ١٦٥.

(٥٠) **روضة التعريف**. م س. ص 72 . **نزهة الحادي**. م س. ص ٣٠٦ . **المنزع اللطيف**. م س. ص ١٣٧ . ١٣٩.

(٥١) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ٥١٨.

(٥٢) العروي، عبد الله "**مجمل تاريخ المغرب**" ج ٣ . المركز الثقافي العربي . بيروت / الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٩٩. ص ٩٣.

(٥٣) صنفها أحد الأجانب الذي زارها سنة بعد وفاة محمد بن عبد الله، بأنها الأكثر أمنًا ونظافة بعد الصويرة من بين كل المدن شاهدها في المغرب. انظر:

LEMPRIERE, George, *Voyage dans l'empire de Maroc et le royaume de Fèz, Traduit de l'anglais* par: M. DE SAINTE-SUZANNE, Tavernier, Librairie / Côrdier et Legras Imprimeurs Librairies, Paris, 1801, pp 21-22.

(٥٤) الكنسوسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد "**الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**" تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي . المطبعة والوراقة الوطنية . مراكش . بدون تاريخ. ص ٢١٨ . **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص١٥٧ . **الاستقصا**. م س. ج ٧. ص ١٨ . **البستان الظريف**.م س. ص ٣٨٨.

(٥٥) **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢٢٦ . انظر أيضًا: **البستان الظريف**.م س. ص ٣٩٨.

(٥٦) **الاستقصا**. ج ٧.م س. ص ٣٢.

(٥٧) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٨٧.

(٥٨) **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢٦٣.

(٥٩) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٧٠.

(60) DEVERDUN, Gaston, *Marrakech des origines à 1912* ,TI: textes, Editions Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1959, p 477.

(٦١) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٧٦.

(٦٢) م ن. ص ١٧٧ . ١٧٨.

(٦٣) م ن. ص ١٧٧ . **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢٣٦.

(٦٤) الزياني، أبو القاسم أحمد "**الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين**". م س. ص ٧٢ . **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢١٨ . **البستان الظريف**.م س. ص ٣٨٨ . **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص١٥٧. ١٥٨ . الاستقصا. ج ٧. م س. ص ١٨.

(٦٥) **الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين**. م س. ص ٧١ . **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص١٥٧.

(٦٦) **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢١٧ . **الاستقصا**. ج ٧. م س. ص ١٧.

(٦٧) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص١٥٧.

(٦٨) المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى "**الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**" تحقيق إدريس بوهليلة . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الطبعة الأولى . ٢٠٠٥ . ج ٢ . ص ٣٠.

(٦٩) مثلما حصل لسلا، انظر:

CHRISTIAN, Pierre, *L'empire de Maroc et les déserts de Sahara*: conquêtes, victoires et découvertes des français depuis la prise d'Alger jusqu'à nos jours, A. Barbier, Éditeur, Paris, 1846, p 287.

(٧٠) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٣٣٠.

(٧١) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٧٢.

(٧٢) نفسه.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٧٣) الغزال، أحمد بن المهدي "**نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**" . رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس . تحقيق إسماعيل العربي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٩٨٠ . ص ٣٨.

(٧٤) **البستان الظريف**.م س. ص ٣٩٩ . **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص٣٣١.

(٧٥) **الاستقصا**. ج ٧.م س. ص ٢٩.

(٧٦) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص٣٣١.

(٧٧) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٨٤.

(٧٨) **الاستقصا**. ج ٨. ص ٢٠ . أفا، عمر "**الأبعاد التاريخية لاقتصاد أكادير في القرن التاسع عشر**" ضمن ندوة: أكادير الكبرى . المحور التاريخي . مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٩٠. ص ٢٣٣.

(٧٩) **الاستقصا**. ج ٧. م س. ص ٢٨.

(٨٠) أفا، عمر "**تاريخ المغرب المعاصر: دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد**" مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ٢٠٠١ . ٢٠٠٢. ص ١٧٤.

(٨١) **الاستقصا**. ج ٨. م س. ص ١٩.

(٨٢) م ن. ج ٧.م س. ص ١٧.

(٨٣) م ن. ص ٥٤ . ٥٥ . **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٧٨.

(٨٤) **الترجمانة الكبرى**. م س. ص ١٣١.

(٨٥) **الاستقصا**. ج ٦. ص ٢٢٢.

(٨٦) **الجيش العرمرم الخماسي**. م س. ص ٢٠٢.

Marrakech des origines à 1912, op. cit, p 475

(٨٧) **الاستقصا**. ج ٦.م س. ص ٩٢.

(88) *L'empire de Maroc et les déserts de Sahara*, op. cit, p 281.

(٨٩) **الاستقصا**. ج ٦.م س. ص ٩٢ . ٩٣.

(٩٠) **البستان الظريف**.م س. ص ٤٨٢.

(٩١) نفسه . ابن زيدان، عبد الرحمن "**الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**" المطبعة الاقتصادية . الرباط . ١٩٣٧ . ص ٥٦ إلى ص ٥٨.

(٩٢) **الدرر الفاخرة**. م س. ص ٥٨.

(٩٣) م ن. ص ٥٧.

(٩٤) **الاستقصا**. ج ٦.م س. ص ٩٣.

(٩٥) **البستان الظريف**.م س. ص ٤٨٢.

(٩٦) **الاستقصا**. ج ٦.م س. ص ٩٣.

(٩٧) **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**. ج ٢. م س ٣٠.

(٩٨) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٩٨.

(٩٩) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. ص ١٨٦-١٨٨.

(١٠٠) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٢.

(١٠١) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٢٦-١٣٤.

(١٠٢) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ١١٣.

(١٠٣) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٣١.

(١٠٤) م ن. ص ١٥٧.

(١٠٥) **مجمل تاريخ المغرب**. ج ٣.م س. ص ٩١.

(١٠٦) **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**. ج ٢. م س. ص ٢٦.

(١٠٧) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٨٦.

(١٠٨) م ن. ص ١٥٩.

(١٠٩) **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٢٥٩ . انظر أيضا: **البستان الظريف**.م س. ص ٤٠٢ . ٤٠٣ . الاستقصا. ج ٧.م س. ص ٤٤ . ٤٥.

(١١٠) بعدما كان الأسطول المغربي يهيمن على غرب المتوسط في العصر الموحدي وبداية العصر المريني؛ صار محمد الشيخ السعدي يعير نظيره العثماني بـ "سلطانة الحواتة". **نزهة الحادي**. م س. ص ٤٢. و"أمير القوارب". **تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية**. م س. ص ٣١. هذا الازدراء يعكس درجة إهمال شؤون البحر التي انحدر إليها المغاربة في هذه الحقبة الدقيقة من تاريخهم. ولم تكن محاولات محمد بن عبد الله في هذا الباب كافية بسبب محدوديتها وظرفيتها.

(١١١) مثل الهدايا الكثيرة في الداخل والخارج للمسلمين والنصارى . انظر مثلاً: **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٢٢٥ - ٢٥٦. ويكفي أن هداياه التي بعث بها لأمير طرابلس وأمير مصر والشام ولأشراف الحجاز واليمن وللعلماء والنقباء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة، وصلت من القدر "ما تحدث به أهل المشرق دهرا". **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**. ج ٢. م س. ص ٣١.

(١١٢) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٦٠.

(١١٣) **رحلة الأسير مويط**. م س . ص ١٤٤.

Voyage dans l'empire de Maroc, op. cit, p 67

(١١٤) نفسه.

(١١٥) **مجمل تاريخ المغرب**. ج ٣. م س. ص ٩٠.

(١١٦) أبرزهم: الفرنسي كورنو والتيريستي بترولي والجنوي تشياب. انظر: **مجمل تاريخ المغرب**. ج ٣.م س. ص ٩٣.

(١١٧) **المغرب عبر التاريخ**. ج ٣. م س. ص ٥٢٢.

(١١٨) **تاريخ الضعيف**.م س. ص ١٧٠.

(١١٩) **الإصلاحات السياسية والاقتصادية**. م س. ص ١٥٩.

(١٢٠) **نتيجة الاجتهاد**.م س . ص ٣٨ . **إتحاف أعلام الناس**. ج ٣. م س. ص ٣٣١ . **الاستقصا**. ج ٧.م س. ص ٢٩.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449